حروف المعاني في خطبة حجة الوداع
دراسة دلالية بلاغية

د. محمد علي مقابلة

ملخص

تناول الباحث جوانب متعددة من حروف المعاني وتطبيقاتها ودلالاتها المتنوعة من خلال خطبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع .

وتبين للباحث بأن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – قد وظّف من خلال خطبته العديد من حروف المعاني التي أدّت في مجموعها إلى ترابط النص وتماسكه من جانب ، كما حملت في تنوعها ما أراده الرسول الكريم من أفكار وأوصلتها لجمهر المتلقين كما ينبغي للنفس البشرية أن تتلقاها من جانب آخر ، ولمّا كان الموقف يتطلب من الرسول الكريم أن يحذّر من خطورة الإقدام على ما حرّم الله في مواقف ، ويطلب من المؤمنين الالتزام بما أمر الله في مواقف أخرى، ويدعو بالإجمال إلى ما ينبغي على المؤمن التحلّي به ، وما ينبغي عليه تجنبه ، فقد وظّف الرسول الكريم العديد من حروف المعاني التي تؤدي الغرض السابق على أتمّ وجه.

وقد وجد الباحث في ثنايا الخطبة من هذه الحروف : حروف الجر بتعدد ، وحروف العطف ، وحروف النصب ، وحروف الجزم ، وأدوات التوكيد ، والاستفهام ، والنفي ، والنهي ، وغيرها من حروف المعاني .

وتناول الباحث الجوانب الدلالية والبلاغية لتلك الحروف ، وتوصل البحث إلى مجموعة من النتائج أوردها الباحث في نهاية بحثه . والله الموفق .

مقدمة:

تمتاز خطبة حجة الوداع لسيد البشرية وخطيبها سيدنا محمد بن عبد الله بالبيان، وفصل الخطاب ، وجوامع الكلم، وروعة الأداء وترابط الأجزاء، وبخاصة أنها احتوت على أصول بني عليها هذا الدين الجليل، الذي اعزّ المسلمين حين تمسكوا به، وأذلّهم حين تخلوا عنه.

وبعد دراسة النص دراسة متأنية، تبين لي أن خطبة حجة الوداع تشكل أحد النماذج الرائعة التي تظهر فيها القوالب اللغوية على أتم وجه، حيث وظّف الرسول الكريم جانباً مهماً من جوانب الدرس اللغوي في ثنايا النص، ليعزز الأفكار المطروحة ويبثها في النفوس، لتكون أكثر وقعاً وأبلغ تأثيراً،

ولما كانت الخطبة غنيةً بالأوامر والنواهي ، وفيها الكثير من أحكام الشرع الرباني التي حرص الرسول الكريم على التزام المسلمين بها، وتطبيقها كما أراد الخالق عزَ وجلَ، وكما بين الرسول الكريم ، فقد كان من المناسب اختيار القوالب السياقية بعناية لتأدية هذا الغرض، ولترتقي هذه السياقات اللغوية في أبهى صورها بياناً وإبانةً ،وكان لابد من توافر وحضور عناصر كثيرة مهمة لإيصال مضمونها على أتم وجه، فكان من بين تلك العناصر – كما ذكرت– حروف المعاني وما تؤديه من دلالات متعددة ، ومن هنا جاء اختياري لهذه الجزئية ، لتكون عنواناً لورقتي البحثية، والله الموفق.

تمهيد:

خطبة حجة الوداع(المناسبة والمضمون)

بعد أن منّ الله على الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- ، بتأسيس دولة الإسلام، ودخول كثير من الناس للإسلام ، وانتشار الدعوة في أرجاء الجزيرة العربية، حجّ الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- حجة الوداع في السنة العشرة للهجرة،وفي التاسع من ذي الحجة، توجه الرسول الكريم الى عرفة فصلّى فيها الظهر والعصر جمع تقديم في وقت الظهر، ثم خطب خطبته الشرعية التي سُميت فيما بعد خطبة الوداع .

وقد حظيت الخطبة باهتمام الباحثين، لما اشتملت عليه من قواعد التشريع وأحكام تنظم علاقة الإنسان مع خالقه من جانب، ونفسه ومجتمعه من جانب آخر. حيث قرر النبي -عليه الصلاة والسلام- في خطبته قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، فقرر تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها ، وهي الدماء والأموال والأعراض ،وأحاطها بسياج من الحرمة والوقاية إلى يوم الحساب، وذلك عن طريق ربطها بحرمة الزمان (يوم عرفة من ذي الحجة) والمكان (الكعبة المشرفة في مكة المكرمة)، وأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، ووضع فيها كل شيء من أمر الجاهلية من الضلال والانحراف، من تعاطي الربا والأخذ بالثأر، وبدأ بذوي قرباه أولا لكي يعطي الإشارة بالأسوة، فهو المعلم والمربي ، وقرر تحريم التفاخر والتباهي بأعمال الجاهلية إلا ما كان من أعمال الخير أقرها الإسلام ،كسقاية الحجاج وخدمة الكعبة، وبين بعض أحكام الاعتداء على الأنفس وما يتصل بها من الديات. كما أشار- عليه الصلاة والسلام - إلى أحكام الله لدينه، وأنْ ليس للشيطان إلا ما احتقر المسلم من أعماله واستهان بها،

وبين أن التلاعب بالأشهر تقديما وتأخيراً قد انتهى، وبذلك أعاد نظام الحج غالى تاريخه الإبراهيمي من ذي الحجة. وحظيت المرأة بجانب مهم من خطبته –علية الصلاة والسلام – ، فأوصى بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهنّ والذي عليهنّ، وحذر الرجال من ظلمهنّ واستغلال ضعفهنّ، كما أعلن –علية الصلاة والسلام– العلاقة الجامعة بين المؤمنين، وهي علاقة الأخوة، وأن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى ، وشدد مجدداً على حرمة الأموال بينهم ، وحذرهم من عاقبة الاقتتال فيما بينهم، وأوصى الأمة بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله.، ثم بين أن الله قد قسّم المواريث في كتابه العزيز ، وأعطى كل انسان نصيبه في الميراث، فلا وصية لوارث، وبين السبب الشرعي للنسب وهو قيام العلاقة الزوجية، وأن الزاني له الخيبة والخسران ، ولا نسب له، وحذر من انتساب الولد لغيرأبيه لما في ذلك من الكذب وتحويل النسب.

<u>نص خطبة حجة الوداع:</u>

لقد تنوعت مصادر الخطبة وتعددت رواياتها، فقد حفلت بها كتب الحديث النبوي الشريف باعتبارها كلاماً ثابتاً عن الرسول – ﷺ – يحمل جوانب كثيرة ومهمة من التشريع للمسلمين، حيث وردت في صحيح البخاري– كاملة أو مجزأة – في احد عشر كتاباً[1]، وفي صحيح مسلم[1] وفي غيرها من كتب الحديث النبوي الشريف.

---

١) البخاري: **الجامع الصحيح**، وقد ورد الاستشهاد بالخطبة في الأبواب التالية من الصحيح: (كتاب العلم – باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب)،(كتاب الحج– باب الخطبة أيام منى)،(كتاب بدء الخلق – باب ما جاء في سبع أراضين)، (كتاب المغازي– = =باب حجة الوداع) ،(كتاب التفسير– باب إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً)

وأوردتها كتب التاريخ والأخبار باعتبارها جزءاً مهماً من حجة الوداع، ومنها سيرة ابن هشام[٢]، وتاريخ الطبري[٣]. واحتفلت بها كتب الأدب لما احتوته من جوانب لغوية متعددة، فأوردها الجاحظ في البيان والتبين[٤] وابن عبد ربه في عقدة الفريد[٥] وقد اعتمدت هنا على الجاحظ في نقل نص الخطبة كما اورده بمقدمتة، وذلك لعدم ميله الى الاختصار ، فأثرت أن أنقلها كاملة كما أوردها وفيما يلي نص الخطبة[٦].

الحمد لله نحمده نستعينه، ونستغفرة ، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا فضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله الى الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد:

، (كتاب الأضاحي–باب من قال: الاضحى يوم النحر)،(كتاب الأدب– باب الحب في الله ،وباب ما جاء في قول الرجل: ويلك) ،(كتاب الحدود– باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق) ،(كتاب الديات– باب قول الله تعالى: ومن أحياها)،(كتاب الفتن– باب قول النبي: لا ترجعوا بعدي كفاراً)،(كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة).

١) مسلم بن الحجاج : **صحيح مسلم** ، ورد نص الخطبة في الصحيح في: (كتاب الحج– باب حجة النبي)

٢) ابن هشام : السيرة النبوية ،ج٤،ص٢٥٢.

٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٤٨ .

٤) الجاحظ : البيان والتبيين،ج٢، ص ٣١–٣٣ .

٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد،ج٤،ص ١٤٧–١٤٩.

٦) الجاحظ: البيان والتبيين،ج٢، ص٣١–٣٣

أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا الاهل بلغت ؟اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً ابدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السلامة .والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائه بعير، ضمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إنّ النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خاق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشرشهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض ،منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد:ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ،ورجب الذي بين جمادي وشعبان.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يواطئن فُرُشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ ، وتهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضربا غير مبرّح، فأن انتهين

وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوانٍ لا يمكن أنفسهن شيئا، أخذ تموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. الأهل بلغت؟ اللهم اشهد.

فلا ترجعنّ بعدي كفاراًيضرب بعضكم رقاب بعض،فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعد : كتاب الله ألاهل بلغت ؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير. وليس لعربي علي عجمي فضل إلا بالتقوى. الأهل بلغت ؟ اللهم اشهد. قالوا نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب

أيها الناس: إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى لغير أبيه، أوتولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المبحث الأول

حروف المعاني أهميتها والفرق بينها وبين حروف المباني

<u>الحرف لغة :</u>

قال ابن فارس (الحرف) الحاء والراء الفاء ثلاثة أصول : حد الشي والعدول، وتقدير الشئ . فأما الحدّ : فحرف كل شيء حدّه كالسيف وغيره... والأصل الثاني : الانحراف عن الشيء . يقال : انحرف عنه ينحرف انحرافاً وحرّفته أنا عنه ، أي بعدلت به عنه . والأصل الثالث : المحراف حديده بقدر بها الجراحات عند العلاج[1] .

وحروف المباني في اصطلاح العلماء هي : الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمة ، وليس للحرف منها معنى مستقل في نفسه ولا في غيره . ويطلق عليها حروف التهجئة[2]. والظاهر أن الحرف في هذا الإصطلاح إنما سمي حرفاً لأنه طرف في الكلام وفضله ، والحرف في اللغة هو الطرف[3] .

أما حروف المعاني في الاصطلاح ، فهي : الحروف التي تربط الأسماء بالأفعال، والأسماء بالأسماء. وتدل على معنى في غيرها ويطلق عليها حروف الربط[4] . قال ابن أم قاسم المرادي: " فإن قيل: ما معنى قولهم: الحرف يدل على معنى في غيره ؟ فالجواب: معنى ذلك أن دلالة الحرف على معناه الإنفرادي متوقفة على ذكر متعلقة . بخلاف الاسم والفعل فإن دلالة كل منهما على معناه الإفرادي غير متوقفة على ذكر متعلق ، ألا

---

١ ابن فارس: مقاييس اللغة (٢/٢٤)
٢ الكفوي : ابو البقاء ١٦٥٧/١
٣ المرادي :الجنى الداني في حروف المعاني ٢/١
٤ ابن سيده : المخصص (٢٢٥/٤)
الكفوي : الكليات ١٦٥٧/١

ترى أنك اذا قلت : الغلام، فهُم منه التعريف. ولو قلت (أل) مفردة لم يفِهم منه معنى. فإذا قرن بالاسم أفاد التعريف . وكذلك باء الجر فإنها لا تدل على الإلصاق ، حتى تضاف الى الاسم الذي بعدها ،لأنه يحصل منها مفردة . وكذلك القول في سائر الحروف"[1] كحروف الجر ، والاستفهام ، والشرط وغيرها، وتقييدها بالمعاني ليُخرج حروف المباني التي تبنى منها الكلمة وهي حروف الهجاء ،فالهمزة في كلمة (أحمد) من حروف المباني ،لأنها من بنية الكلمة ، بينما الهمزة في (أذهب زيد ؟) فهي حرف دال على معنى الاستفهام فتكون من حروف المعاني .

ويظهر الفرق بين حروف المعاني وحروف المباني بما يلي:

١. حروف المباني هي حروف التهجي، ومنه تبنى الكلمة فهي أبعاض الكلمة. أما حروف المعاني فهي من أنواع الكلم.
٢. حروف المباني لا تزيد على حرف واحد، بينما حروف المباني فمنها الأحادي والثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي .
٣. حروف المعاني يتبين معناها بغيرها. بينما حروف المباني ليست كذلك .
٤. عدد حروف المباني ثمانية وعشرون حرفاً، أما حروف المعاني فهي متفاوته في عددها بين العلماء حتى وصلت عند بعضهم الى تسعين حرفا .

---

١ االمرادي الجنى الداني ٢/١

وجاءت تقسيمات حروف المعاني في المؤلفات التي تحدثت عنها إلى أقسام متعددة. فمنهم من قسمها بحسب عددها الى :

أحادية: وهي ثلاثة عشر حرفاً: منها الهمزة ، والألف والباء،....

ثنائية: وهي ستة وعشرون حرفاً منها: (آ، إذ ، ال، أم.....

ثلاثية : وهي خمسة وعشرون حرفا منها (إذما، ألا، إلا ، أما

ورباعية: وهي خمسة عشر حرفاً ، منها : (ألّا، إلّا، أمّأ ،...)

وخماسية: وهي لكنّ

ومنهم من نظر إليها من حيث العمل، فقسموها الى عاملة وغير عاملة ، أما العاملة فهي: التي تؤثر في إعراب الاسم أو الفعل الداخلية علية مثل: إن وأخواتها ، وحروف الجر، وأدوات الجزم ،وأدوات النصب وغير العاملة فهي: التي تؤثر في الدلالة ولا تؤثر في الاعراب مثل : حرفي الاستفهام ، وحرفي الاستقبال ،وحرف التحقيق ولا النافية وغيرها وتنقسم من حيث اشتراكها في معنى او عمل تنسب إلية الى : أصراف الجواب ، وأحرف النفي، وأحرف الشرط وأحرف التخصيص وأحرف مصدرية،وأحرف استقبال ومن ذلك أيضا: حروف الجر، والعطف، والنداء[1].

المبحث الثاني

حروف المعاني في الخطبة ودلالتها

جاء تقسيم حروف المعاني في الخطبة وفق اشتراكها في معنى أو عمل تنسب إليه فكانت على النحو الآتي:

---

١ المالقي: رصف المباني في حروف المعاني ، ص ١٠٠-١٠٢

المطلب الأول : حروف الجر

الجر لغة: هو الجذب والشد والاقتياد، وهي مأخوذة من المادة اللغوية (جرر) [1]

الجر اصطلاحاً: نقل أو وصل ما قبل الجار إلى ما بعده من فعل او شبهه وبحروف الجر تصل الاسم بالاسم والفعل بالاسم ، ولا يدخل حرف الجر إلا على الأسماء [2] وقد أطلق النحويون على الجر مسميات متعددة منها: (حرف الخفض ، حرف الجر ، حرف الإضافة، فأطلق عليها سيبوية حروف الجر [3] وهي عند الزجاجي حروف خفض [4] وعند الخليل حروف الخفض مرة وأخرى حروف الجر

حروف الجر :هي أدوات تستخدم لربط أجزاء الكلام حتى تتضح تفاصيل المعنى، لذلك لها قيمة دلالية سياقية نصية تظهر من خلال توظيفها في النصوص، فهي تحدد الدلالات السياقية بدقة، وتبين معناها ومغزاها في الحديث . ولحروف الجر وظيفتان: دلالية ونحوية.

أما الوظيفة الدلالية :فتتمثل في إحداث الترابط والتماسك بين عناصر الجملة، فلا يمكن الاستغناء، عنها فلو حذف حرف الجر لتغير المعنى العام للجملة. كما تضفي على السياق معاني متناهية، وتعمل على الربط بين أجزاء الكلمة، فتتضح تفاصيل المعنى ومقاصده، وأما الوظيفة

---

١ ابن منظور : لسان العرب ،مادة (جرر)

٢ احمد فليح : حروف الجر ومعانيها دراسات نحوية، ص ١٥-١٦

٣ سيبوية : الكتاب تحقيق عبد السلام هارون ،عالم الكتب بيروت ١٩٨٣

٤ الزجاجي: شرح جمل الزجاجي، ص ٦٠

النحوية: فتتمثل فيما يؤدية حرف الجر من معنى نحوي في الجملة ، حيث إن جميع حروف الجر هي حروف مبنية بناءً ظاهراً او مقدّراً .

الفرع الأول: أقسام حروف الجر :

ينقسم الجار والمجرور من حيث الاختصاص إلى :

أ- ما يختص بالاسم الظاهر والمضمر ،وهي: (رب، مذ، منذ، حتى ، الكاف، واو القسم، تاء القسم ، كي)

ب.ما يختص بالضمير، (لولا)

ج.ما هو مشترك بين الأسم والضمير وهي (من ، إلى، عن، على، في ، الباء، اللام، عدا، خلا، حاشا)

وتنقسم حروف الجر من حيث الاصالة والزيادة إلى :

أ- حرف جر أصلي: وهي الحروف التي تؤدي معنىً جديداً في الكلمة، وتصل بين عاملها والاسم المجرور، وهي: (من ، إلى، عن، على، حتى، مذ، منذ، كي، اللام، الواو، التاء، الكاف)

ب.حرف جر زائد : وهي الحروف التي لا متعلق لها، ودخولها كخروجها، وتعمل على تقوية المعنى في الجملة، ويكون إعراب الأسم بعدها مجروراً لفظاً مرفوعاً أو منصوباً محلاً وهي(الباء، اللام، الكاف،)[1] وحتى تكون زائدة فلا بد من توافر شروط [2]

الفرع الثاني: الجانب التطبيقي لحروف الجر :

---

١ عاطف فضل :النحو الوظيفي ،ص ١٨٦، ١٨٧

٢ المرادي :الجنى الداني في حروف المعاني،ص ٣١٤

- ابن هشام:مغنى اللبيب، ج ١،ص ٣٤٩

بعد تتبع حروف الجر في خطبة حجة الوداع تبين أن النص قد حفل بها، وبلغ مجموع حروف الجر المستخدمة سبعة وستين حرفاً، بجانب على النحو التالي:

أولا: اللام

حرف كثير المعاني والأقسام وللام الجاره معاني وصلت عند ابن هشام إلى اثنين وعشروين معنى [١] ،وعند المرادي ثلاثين معنى[٢]. وقد جاءت في الخطبة مؤدية المعاني التالية:

أ. الاستحقاق

وظّف الرسول – صلى الله علية وسلم – الكثير من حرف الجر(اللام) ليؤدي معنى الاستحقاق في الخطبة، ومن ذلك:

- الحمد لله.
- إن لنسائكم عليكم حقاً.
- ولكم عليهن حق .
- لكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم غيركم .
- قد أذن لكم أن تعضلوهنّ .
- ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى .
- فلا تجوز لوارث وصية .
- فلا فصل له .

---

١ ابن هشام : مغني اللبيب، ج١، ص٢٣٣

٢ المرادي : الجنى الداني، ج١ ،ص ١٤٣

- فلا هادي له.

وهذه الموقع الثلاثة الأخيرة مفيدة للاختصاص عند من جعل اللام وما بعدها صفة وجعل الاسم شيئاً بالمضاف لأن الصفة من اقسام الموصوفوعلى قول من جعلها خيراً أما عند سيبوبة فاللام هنا زائدة للتوكيد وهي مقحمة واسم لا مضاف لما بعد اللام[1]

ب. الملك

وجاء ذلك في:

- إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه
- لا يملكن لأنفسهن شيئاً

ج.شيه التمليك:

- من ادعى لغير أبيه

د. الاختصاص: وجاء ذلك في

– الولد للفراش

– للعاهر الحجر

هـ . بمعنى (من)

- كلكم لآدم

و. التبليغ.

– اسمعوا مني أبين لكم

<u>ثانياً: الباء</u>

١ ابن هشام مغني اللبيب، ج١ ،ص٢٤٢

الباء حرف مختص بالاسم، ملازم لعمل الجر فيه، وهي ضربان: زائدة ،وغير زائدة . فأما غير الزائدة فقد ذكر النحويون لها ثلاثة عشر معنى[1]،وعند ابن هشام أربعة عشر معنى [2].وجاءت في الخطبة مؤدية المعاني التالية:

١. الاستعانه: وامثلة ذلك قول الرسول – صلى الله عليه وسلم–:
   - أوصيكم عباد الله بتقوى الله
   - ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
   - وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى
   - استفتح بالذي
   - ما قتل بالعصا والحجر
   - لا يدخلنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم
   - يضل به
٢. السببية: كقول الرسول – صلى الله عليه وسلم–:
   - فإني تركت فيكم ماإن أخذتم به لم تضلوا بعد

كما في قوله– عليه الصلاة والسلام

٣. التعدية:
   - ولا يأتين بفاحشة
   - أبدأ به

---

١ المرادي : الجنى الداني ،ص ١٠٢

٢ ابن هشام، مغني اللبيب ،ج١ ،ص١١٨

- نبدأ به

مع احتمالية كونها للاستعانه في الموقعين الأخيرين

الظرفية المجازية:

- وكسوتهنّ بالمعروف
- أخذتموهنّ بأمانه الله
- واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله

مع احتمالية كونها للسببية في الموقع الأخير

ثالثاً : الكاف

وقد وردت في موقعين أفادا التشبيه

- إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا
- وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض

رابعاً : حرف الجر (في)

وقد ورد في الخطبة في اثني عشر موقعاً وأدى المعاني التالية:

أ. الظرفية :

١. الحقيقية : وكان ذلك في قوله –علية الصلاة والسلام–:

– في شهركم هذا – ظرفية زمانية

– في بلدكم هذا – ظرفية مكانية

٢. المجازية:

– ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير

– ولكنه قد رضي ان يطاع فيما سوى ذلك

– وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراًفي كتاب الله

– فاتقوا الله في النساء

– فإني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا

ب. المقايسية

– إنما النسيء زيادة في الكفر

ج.المصاحبة (بمعنى مع)

- قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ في المضاجع

د. التوكيد:

– فإني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به

– مع احتمالية معنى الظرفية المجازية في هذا الموقع .

خامساً : (عن)

وجاء في موقع واحد من الخطبة ليفيد المجاوزة وهو:

– ولا يحل لامرئ مال أخية إلا عن طيب نفس منه

سادساً : حرف الجر (من)

حرف جر يكون زائداً وغير زائدا [1] وغير الزائد في خمسة عشر وجهاً عنه ابن هشام [1] وقد وردت في الخطبة في عشرة مواقع مؤدية المعاني التالية :

---

١ المرادي: الجني الداني، ص ٩٠

أ. الابتداء: وأدت معنى الابتداء في المواقع التالية من الخطبة:

- ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
- ومن سيئات اعمالنا
- لا يقبل منه صرف ولا عدل

وجاءت مؤدية معنى ابتداء الغاية الزمانية في:

فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، اي :كان من اهل الجاهلية مع احتمالية حملها على معنى بيان النوع في الموقع السابق

ب. التعليل : وتمثل ذلك في قول الرسول– صلى الله عليه وسلم – :

– ولكنه قد رضي في أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

ج.التبعيض: وتمثل ذلك في

- مما تحقرون من أعمالكم
- إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث مع احتمالية كونها لبيان النوع في هذا الموقع
- ولا يحل لا مرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه
- منها أربعة حرم

د. المجاوزة (بمعنى عن) :

قوله عليه الصلاة والسلام :

– ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث

---

١ ابن هشام: مغني اللبيب،ج١، ص ٣٤٩

– وآدم من تراب . اي عن تراب مع احتمالية بيان النوع في هذا الموقع : أو النسبة كما يطلق عليها البعض. وله عند ابن هشام عشرة معاني [1]

سابعاً : على

وقد جاءت في الخطبة في تسعة مواقع مؤدية معنى الاستعلاء المجازي :

- إن لنسائكم عليكم حقاً
- ولكم عليهن حقُ
- وأحثكم على طاعته
- ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى
- فعليكم رزقهنّ
- فعليه لعنه الله
- فمن كانت عنده أمانه فليؤدها إلى من ائتمنه عليها
- والسلام عليكم

ثامناً : إلى

ووردت في ثلاثة مواقع فكانت مؤدية:

١. انتهاء الغاية الزمانية في :

- إلى أن تلقوا ربكم

---

١ ابن هشام: مغني اللبيب ، ج١،ص ١٩١

٢. انتهاء الغاية المكانية في:

- فمن كانت عنده أمانه فليؤدها الى من أئتمنه عليها
- ونتوب اليه

المطلب الثاني : حروف التوكيد:

اولاً: التوكيد بإنّ: وجاءت على الأحوال التالية:

أ:خبرها مصدّر بقد في :

- إنّ الشيطان قد يئس
- إنّ الزمان قد استدار
- فإنّي قد تركت فيكم
- إنّ الله قد قسم لكم

ب.خبرها منفي : في قوله – عليه الصلاة والسلام–:

- فإنّي لا ادَري

ج.تقدّم خبرها على اسمها: في قوله– عليه الصلاة والسلام–:

- إنّ لنسائكم عليكم حقاً

ثانياً: التوكيد بنون التوكيد : وقد جاء بعد طلب

- فلا ترجعنّ بعدي كفاراً

ثالثاً: التوكيد بقد:

وأفادت في جميعها التحقيق، وكانت في جميعها داخلة على خبر إن ، وفي موقع داخله على خبر لكن. وجاء في معانيها عند العلماء ما يفيد التقريب للماضي من الحال، والتحقيق مع الماضي،والتقليل مع المستقبل، وقال بعضهم: إن دخلت على المضارع لفظاً ومعنى فهي لتوقع، وإن دخلت

للتوقع، على الماضي لفظاً ومعنى، أو معنى، فهي للتحقيق[1].ومواطنها في خطبة حجة الوداع هي :

- ان الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه
- ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك
- إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض
- فإنّ الله قد إذن لكم أن تعضلوهنّ
- فإنيّ قد تركت فيكم
- إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه

رابعاً: التوكيد بأسلوب الحصر

- لا يدخلن أحدً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم
- وليس لعربي على عجمي فضل إلا بتقوى
- وإنما النساء عندكم عوان

خامساً: التوكيد بأنْ

- وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

سادساً: التوكيد بأن الناصبة للمضارع

- أنْ تلقوا
- أنْ تعضلوهنّ

سابعاً: التوكيد بلفظة (كل)

- كلكم لآدم وأدم من تراب

---

١ المرادي :الجنى الداني، ص٨٠

ثامناً:التوكيد بلام الأمر

- فمن كانت عنده أمانه فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها
- فليبلغْ الشهد الغائب

المطلب الثالث : أدوات النصب

١.أنْ الحرفية الناصبة للفعل المضارع:

ذكر لها بعض النحويين عشرة أقسام[١] وقد وردت في الخطبة في خمسة مواقع كانت في جميعها مصدرية ناحية

أ. فكانت هي ومدخولها في موقع جر في قوله – عليه الصلاة والسلام :

– إلى أنْ تلقوا ربكم

ب. وكانت هي ومدخولها في موقع رفع في قوله– عليه الصلاة والسلام:–

– لكم عليهنّ ألا يوطئن فُرُشكم غيركم

ج. وكانت هي ومدخولها في موقع نصب في

– ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه

– ولكنه قد رضى أنْ يطاع

– فإنْ الله قد أذن لكم أنْ تعضلوهنّ

٢.إنَ المشددة الناسخة: وقد وردت في سبعة عشر موقعاً

١ المرادي: الجنى الداني،ص ١٤٩

٣.لكنّ: وإفادتها الاستدراك، وسبق الإشارة إليها في باب التوكيد بقد ، ووردت في الخطبة في :

- ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك

٤. لام الأجل : ووردت في موقع واحد من الخطبة في قوله – عليه الصلاة والسلام –:

- ليواطئوا عدة ما حرم الله. وهي تنصب عند الكوفيين ، وأما البصريون فهي عندهم لام جر ، والناصب بعدها أنْ مضمرة، وذهب المرادي إلى ترجيح الوجه الأخير لثبوت الجر بها في الأسماء[١]، ويكون المصدر المؤول من أن المضمرة وما يليها مجروراً بها
- كما جاءت مضمرة في قوله عليه الصلاة والسلام – اسمعوا مني أبين لكم والتقدير :لأبين لكم

المطلب الرابع: الحروف الجازمة

١. الجزم بإن الشرطية :

وهو حرف يجزم فعلين، وشد إهمالها[٢] وقد جاء في الخطبة في ثلاثة مواقع، وجاء فعلها ماضياً في المواقع الثلاثة، وجوابها في إحداها يتكون من إن واسمها وخبرها مصدّراً بالفاء ، وفي الثانية جملة إسمية مصدرة بالفاء وفي الثالثة جملة فعلية ، فعلها مضارع مقترن بلم.

---

١ نفسه ص ١٥٢

٢ المرادي: الجنى الداني ، ص ٢٢٨

- فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ
- فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ
- إن إخذتم به لم تضلوا بعد

٢. الجزم بلام الأمر:

لام الأمر: وهي لام جازمة والأولى أن يقال: فيها لام الطلب ،ليشمل الأمر ، والدعاء، والالتماس.[١]

وقد ورد توظيفها بنوعها الأول في الخطبة في قول الرسول – صلى الله علية وسلم–:

- فمن كانت عنده أمانه فليؤدها إلى من أئتمنه عليها
- فليبلغ الشاهدالغائب

وتمثلت في الخطبة في الموقعين التاليين:

- فمن كانت عند أمانه فليؤدها إالى من أتمنه عليها
- فليبلغ الشاهد الغائب

المطلب الخامس : أدوات النفي

١. لا النافيه للجنس

وهي العاملة عمل إنّ ، وتخالف إنّ في سبعة أوجه [٢] .وجاء ورودها في الخطبة على النحو التالي:

- من يهد الله فلا مضل له

---

١ المرادي: الجنى الداني ،ص ١٤٩

٢ ابن هشام : مغني اللبيب ، ج١ ، ص ٢٦٤-٢٦٦

- ومن يضلل فلا هادي له
- وأشهد أن لا أله إلا الله وحده لا شريك له

حيث جاء اسمها نكرة مبنياً على الفتح لانقطاعه عن الإضافة

٢. لا النافية غير العاملة :

- فإني لا أدري
- لعلي لا ألقاكم
- وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً
- فلا تجوز لوارث وصية
- ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث

٣. النفي (بلم) :

وهي أداة نفي وجزم وقلب، والنفي بها منقطع. وجاء تمثيلها في الخطبة بموقع واحد:

- فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعد

٤. النفي بليس:

وهي فعل ناقص جامد مبنى على الفتح، يفيد معنى النفي ، ويختص بالدخول على الجملة الاسمية، فتنفي اتصاف اسمها بخبرها من حيث المعنى وتمثلت في الخطبة بموقع واحد

– وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوي

المطلب السادس: أحرف العطف

أولاً: العطف بالواو

أم بـاب حـروف العطـف، لكثـرة مجالهـا فيـه ، وهـي مشـركة فـي الإعراب والحكم، ومذهب جمهور النحوبين أنها للجمع المطلق، فإذا قلت: قام زيد وعمرو، احتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكونا قاما معاً في وقت واحد

الثاني: أن يكون المتقدم قام أولاً

الثالث: أن يكون المتأخر قام اولاً

ومذهب سيبوية أنه ليس في هذا دليل على انه بدأ بشئ قبل شيء ولا بشيء بعد شيء ،وذهب قوم إلى أنها للترتيب، وأورد المرادي في الجنى الداني من نسب إليهم هذا القول[١] .

وإذا عطف بالواو على منفي فإنْ كان القصد المعية لم يؤت بلا بعد الواو، نحو:ما قام زيد وعمرو، وقد ترد زائدة إن أمن اللبس ،نحو: ما يستوى زيد ولا عمرو لأن المعية هنا مفهومة من يستوى، وإن لم يكن القصد المعية جيء بلا نحو: ما قام زيد ولا عمرو، لتعلم بذلك أن الفعل منفي عنهما حال الاجتماع والافتراق. ومنه [٢] :((وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى))[٣]

أ.عطف مفرد على مفرد

---

١ المرادي: الجنى الداني : ص١٨٨

٢المرادي : ص ١٩٠

٣ سورة سبأ : الأية ٣٧

والواقع أنها جاءت في الخطبة مفيدة الترتيب وحدوث ما قبلها متقدماً على ما بعدها في قوله – علية الصلاة والسلام–:(ذو القعدة ،وذو الحجة ، وجمادي وشعبان،) وذلك أن حدوث مدخولها الزمني متأخراً على ما قبلها، وكذلك الحال في:(فعليه لعنةالله والملائكة والناس)، فاللعنة تقع على الترتيب من الله سبحانه وبعد ذلك من الملائكة وأخيراً من الناس.

وفي قوله –علية الصلاة والسلام–:'أن دماءكم وإموالكم'، فقد جاء الترتيب هنا بحسب الأهمية، فالأهم أولاً في الحرمة الدماء وبعد ذلك المال وفي قوله– علية الصلاة والسلام –: "السموات والأرض" فخلق السموات سابق على خلق الأرض ،وغير ذلك كثير في الخطبة، وجاءت لمطلق الجمع في : "ما قتل بالعصا والحجر"

ب.عطف جملة على جملة:

جاءت الواو عاطفة لجملة على جملة مفيدة ترتيب الحدوث في مواقع منها:

– فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ في المضاجهع وتضربوهنّ ضرباً غير مُبرحَ. حيث تسلسل في اجراءات العقاب لمن تتصف من النساء بالخروج عن طاعة الزوج وفعل ما يكره

ومثل ذلك: فإن إنتهين وأطعنكم، العودة للطاعة. ومع هذا فقد جاءت مفيدة حدوث مدخولها على سابقة في مثل قوله – علية الصلاة والسلام–: لكم عليهنْ ألا يوطئن فُرشكم غيركم ، ولا يدخلنَ أحداً تكرهونه بيوتكم، فالإذن بالدخول للمنزل سابق على مواطئة الفراش

وجاءت لمطلق الجمع في مواقع اخرى منها:–

- الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره
- من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا
- فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً

وخرجت الواو عن العطف وأفادت استئناف في مثل

- واستفتح بالذي هو خير
- وإن ربا الجاهلية موضوعة
- والعمد قود
- وأن عدة الشهور عن الله اثنا عشر شهراً
- وإنما النساء عندكم عوانٍ

ثانيا: العطف بالفاء

الفاء: حرف مهمل، خلافاً لمن زعم انها تجر إذا نابت عن ربّ، ولمن ذهب إلى أنها تنصب المضارع في الأجوبة، وأصول أقسامها ثلاثة: عاطفة، وجوابية، وزائداة [1]

اما العاطفة فهي من الحروف التي تشرك في الإعراب والحكم، ومعناها التعقيب فإذا قلت: قام زيد فعمرو، دلت على أن قيام عمر بعد زيد

١ المرادي : الجنى الداني ، ص١٢١

بلا مهلة، فتشارك ثم في إفادة الترتيب، وتفارقها في أنها للاتصال، (وثمّ) للانفصال .

والمعطوف بالفاء إن كان مفردا غير صفة فلا يدل على السببية،أما إذا كان جملة أوصفة، فيدل على السببية غالباً. وجاء ذلك في قوله- علية الصلاة والسلام:- ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله.

وخرجت الفاء عن كونها للعطف فوقعت رابطة لجواب الشرط في مواقع كثيرة من الخطبة منها:

- من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له
- فمن كانت عنده أمانه فليؤدها إلى من أئتمنه عليها
- فمن زاد فهو من أهل الجاهلية
- فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم

حيث كان جواب الشرط غير صالح لجعله شرطاً، فاحتاج للربط بالفاء، وتفيد الفاء في مثل ذلك الربط، وتلازمها السببية[1]. كما خرجت الفاء كذلك عن معنى العطف وأفادت الاستئناف في مواقع كثيرة من الخطبة منها:-

- ألاهل بلغت؟ اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانه
- فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض
- واستحللتم فروجهنَ بكلمة الله، فاتقوا الله

ثالثاً :العطف بأو

١ نفسه : ج١ ص ١٧

وتمثل ذلك في موقع واحد من الخطبة وذلك في قوله – علية الصلاة والسلام –: من ادعى لغير أبيه، أو تولى غير مواليه .

المطلب السابع : حرف التعريف (ال)

وهي نوعان: عهدية ، وجنسية، وكل منها ثلاثة أقسام:

١.العهدية:

إما أن يكون مصحوبها معهوداً ذكرياً، نحو قوله تعالى:(كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسولا)[١] ، أو معهوداً ذهنياً، نحو قوله تعالى:(إذهما في الغار) [٢] ، أو معهوداً حضورياً . قال ابن عصفور: ولا تقع هذه إلا بعد أسماء الإشارة نحو : (جاءني هذا الرجل) أو أي في النداء نحو : (يا أيها الرجل) ، أو إذا الفجائية نحو : (خرجت فإذا الأسد) ، أو في اسم الزمان الحاضر نحو (الآن) [٣].

وقد حفل النص بال العهدية الذهنية، ومن أمثلت ذلك في الخطبة:

- الجاهلية في (فمن زاد فهو من أهل الجاهلية)
- السموات والأرض في (يوم خلق الله السموات والأرض)
- الشيطان في (إن الشيطان قد يئس)
- والعمد قود

كما تمثلت العهدية الحضورية في

- أيها الناس

---

١ القرآن الكريم: سورة المزمل ، أية ١٥

٢ القرآن الكريم :سورة التوبة ، الأية ٤٠

٣ ابم هشام :مغني اللبيب ، ج١ ، ص٦١

ولم يكن هناك تمثيل على نوعها الأول (العهدية الذكرية)

٢. الجنسية:

وتكون لاستغراق الجنس ، وهي التي تخلفها كل حقيقة نحو قوله تعالى:(إن الإنسان خلق هلوعاً)[١] أو لاستغراق خصائص الأفراد،وهي التي تخلفها كل مجازاً، نحو : (زيد الرجل علماً) أي : الكامل في هذه الصفة ، ومنه : (ذلك الكتاب) . أو لتعريف الماهية، وهي : التي لا تخلفها كل لا حقيقة ولا مجازاً ، نحو:(وجعلنا من الماء كل شيء حيَ)[٢]

ومما ورد في الخطبة ممثلا (ال) الجنسية وأفادت استغراق الجنس قوله – علية الصلاة والسلام– :

- إنما المؤمنون أخوة
- فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين
- وإنما النساء عندكم عوان
- ما قتل بالعصا والحجر
- وجاءت (ال) زائدة لازمة في الخطبة مع الاسم الموصول في قوله – علية الصلاة والسلام– (الذي) ، (الذين)
- وجاءت زائدة غير لازمة في (الحارث)،(العباس) ، (المطلب) وهي عند بعضهم للمح الصفة[٣]

المطلب الثامن :أحرف الاستفهام

---

١ القرآن الكريم:سورة المعارج الأية ١٩

٢ القرآن الكريم: سورة الأنبياء ، أية ٣٠

٣ ابن هشام: مغني اللبيب، ج١، ص ٦١-٦٣

ورد الاستفهام بهل مكرراً بقالب واحد في أربعة مواقع، وذلك في نهاية جملة من الأحكام الشرعية التي أكدّها رسول الله – صلى الله علية وسلم– وذّكر بها المؤمنين ، وهي من الأهمية التي كانت تستدعي تعقيبها بمثل هذا القالب اللغوي الذي يدل على أهميتها.

وجاء الاستفهام فيها جميعاً بـ (هل) مسبوقة بأداة التنبيه (ألا) في قوله– عليه الصلاة والسلام– ألاهل بلغت ؟ اللهم اشهد .

وحرف الاستفهام (هل) ، حرف موضوع لطلب التصديق الإيجابي، دون التصور ودون التصديق السلبي[1]. أما (ألا) فهي في هذه المواقع حرف مركب من الهمزة ولا، وبهذا التركيب تفيد التحقيق إلى جانب كونها للتنبيه.

المبحث الثالث
الجوانب البلاغية في الخطبة

استهل الرسول الكريم خطبته بقوله – علية الصلاة والسلام :– "الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه" باستخدام نون الجمع مع الحدث،وفي ذلك من البلاغة ما لا يخفى على أحد، فالرسول الكريم، وإن كان منزّهاً من الله سبحانه عن الأخطاء، إلا أنه فرد في الجماعة الإسلامية، مع كونه قائدهم ومعلمهم هاديهم ، يقدم المثل والعبرة في ضرورة مشاركة الأخرين حمداً واستعانةً واستغفاراً، وفي ضرورة التوبة إلى الله والاستعاذة به من الشرور كغيره من المسلمين، ومع أنه قد غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، ومن فوائد هذه المشاركة أنها توطدّ أواصر المحبة والألفة بين

١ ابن هشام : مغني اللبيب،ج٢ ،ص ٤٠٣

المخاطب والمخاطَب ، ولئلا يبدو الخطيب بصورة من يزكي نفسة أو يرفع من مكانته الشخصية على مكانه من يتكلم فيهم . وفي ذلك تكتمل أبهى صور الأدب للمعلم المؤدب: الأدب مع خالقه ، والأدب مع المخاطبين من معشر المسلمين ، فهو معلمهم الذي يقتدون به ويتأسون.

ثم نسب الفضل لله سبحانه في الهداية ، فقال: (من يهد الله فلا مضل له) ، وهو أسلوب لا يخلو من الدعاء والاستعطاف لله سبحانه ألا يحرمهم هدايته وفضله، وأن يأخذ بأيديهم إلى ما يرضيه، وأن يصرفهم عن مواطن الزلل والضلال.

أما المحطة الأخرى في بلاغة الرسول – صلى الله علية وسلم – في الاستهلال فتمثلت في قوله– علية الصلاة والسلام – : (وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله). فالسياق العرفي كان يقتضي أن يقول – عليه الصلاة والسلام – : وأشهد أني عبد الله ورسوله، إلا أنه آثر – علية الصلاة والسلام – أن يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب، وكأنه يفرق في ذلك بين شخصيتين :

الاولى: شخصية محمد الخطيب المتحدث

والثانية: شخصية محمد النبي الرسول

فشخصيته الأولى البشرية تؤمن بشخصيته الثانية المُرسَلة، وفي هذا من التواضع ما لا يخفى على أحد . فهو لا يسعى لمجد أو شهرة ، إنما جاء مبلغاً ونذيراً ومبشراً لآخر الأمم، ومنقذاً لها من الضلال . ومن أجل ذلك بقي مخلصاً لهذا الاختبار الرباني إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

وفي هذا المقام كان لزاماً على النبي الهادي أن يترك بين يدي أتباعه من المؤمنين ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم، فجاءت الوصية بأهم ما يجعل حياة الإنسان مستقيمة، وهي تقوى الله ، فقال – علية الصلاة والسلام –: "أوصيكم عباد الله بتقوى الله " ، وتقوى الله كلمة جامعة لخلال الخير كلها ، وجاءت وصيتة الثانية في صورة حث وحض، فقال:" وأحثكم على طاعته ". فالطاعة هي المحرك الدافع للعبد في تقواه لخالقه وهي الطاقة التي يستمد منها جهده على ابتلاءات الحياة .

ثانياً:بلاغة توظيف حروف المعاني من خلال العرض

(يا) فيقول:" (أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)

يستهل الرسول – ﷺ– عرضه للخطبة بالاستغناء عن أداة النداء ، وحذف الياء هنا إنما جاء ليبين قرب المخاطبين من النفس، فالهوة بينهم وبين معلمهم وهاديهم قد زالت، فالناس بذلك كأنهم قريبون إليه يناديهم بأرق النداء وأعذبة ، لتحقيق الغاية المترتبة على النداء، وهي استمالة القلوب إلى ما يلقى عليها من حسن التوجيه .

ويا النداء في أصلها وضعت للبعيد[1] ، بدليل أنهم عدّوا الأداتين (الهمزة، وأي) للقريب . غير أن الاستخدام يجيزها للقريب والبعيد .

أما في قوله – علية الصلاة والسلام–(فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا) حيث جاء استخدام (إن) بكثرة في غضون الخطبة، ولكل

١ القزويني : التلخيص في علوم البلاغة ، ١٧٢

موضع ترد فيه (إنّ) دلالة التوكيد والأهمية. والسؤال هنا، لماذا لم يرد القول على النحو التالي: لعلي لا القاكم بعد عامي هذا.

يقول جليل رشيد فلاح:"لو جاء الكلام على هذه الشاكلة لما تأتى لهذا الكلام أن يفعل فعله التوجيهي العقائدي . إن جو الكلام منذ استهلاله يوحي بأن الرسول –صلى الله علية وسلم – قد وقف وقفة الوداع ، فأراد أن يقرر حقيقة رحلة الإنسان من حياتة الدنيا، بتقديره أنه– وإن كان رسولاً يوحي إليه – لا يدري متى سيكون رحيله[1] "

ولكي يستقر هذا المفهوم بكل أبعاده من غير أن يعتري السامع شك في ذلك جاء بصيغة التوكيد الذي من شأنه أن يرسخ الفكرة في الأذهان . ومن الملاحظ البلاغية في استخدام (إنّ) في هذا الموضع أنها جاءت في عقب جملة سابقة، فقد كان مجئء(إنّ) ضرباً من ضروب التوثيق بين الجملتين[2] قال الزملكاوي:(وتجيء(إنّ) للربط بين جملتين لتوصيل إحداهما بالأخرى فتراهما بعد دخولها كأنهما قد أفرغا في قالب واحد)[3].

ثم يتبع الرسول – صلى الله علية وسلم – أداه التوكيد (إنَ) بقوله : (لعلي) وهي في أصل وضعها للترجي ، ولو تتبعنا دلالاتها المجازية لوجدنا أنها تخرج إلى معان أُخر منها : الاشفاق والتقرير والتمويه والتمني . ولم تأت في الخطبة لمعناها الأصيل وهو الترجي، بل خرجت إلى الإشفاق ربما والتقرير . فإشفاق على المسلمين بعد غيابة –عليه الصلاة والسلام– عنهم

---

١ جليل رشيد فلاح : خطبة حجة الوداع دراسة تحليلية بلاغية

٢ القزويني : الإيضاح في علوم القرآن ، ص ١٤٣

٣ الزملكاني : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ١٥٦

، وتقرير بدنو الأجل، وهذه الدلالة تنسحب على كل إنسان ذلك أننا جميعاً معرضون للموت في كل لحظة .

وتقدمت هذه الأدوات من التوكيد جملة من الحقائق التي أراد الرسول –صلى الله عليه وسلم – غرسها في النفوس ، فهي أحكام للحياة لا تحتمل تأويلاً ولا تقبل حيدة أو جنوحاً، فكان لا بد من توظيف ما أتيح له– علية الصلاة والسلام– من أدوات اللغة الدالة على توكيد أهمية تلك الأحكام الشرعية، أمراً أو نهياً أو خبراً سيتلزم طلباً أو خبراً يقع في الجواب . وجاء في مقاطع الخطبة بأكثر من وسيله وهي: أداة التوكيد (إنّ) والتكرار، وتقديم ما حقه التأخير(ومنه القصر)، وأداتا التوكيد والتحقيق (قد ، وكل)، وقد أوردت تفصيل ذلك في باب أدوات التوكيد .

إن حرمة الأموال والدماء مما تعد من كبريات القضايا التي كانت تسود حياة الجاهلية، وكان لا بد لها من الحسم القاطع ولذلك تصدرت هذه المقاطع أداة التوكيد إنّ ، بقوله – علية الصلاة والسلام–:(إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم)، تلك الأداة التي تضمن الإيصال والتثبيت، إضافة إلى حسم التردد والشك في القبول والتلقي.

وذهب البلاغيون إلى أن استخدام أداة التوكيد واحدة ضمن العبارة هي لحسم الشك والتردد ، قال القزويني: " وإن كان متصور الطرفين، مترددا في إسناد أحدهما إلى الآخر طالباً له حسن تقويته بمؤكد "[1]

١ القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ، ١٨

وجاء التكرار للإشعار بأهمية الأمر وإعظام شأنه، ومواطن التكرار في الخطبة تعددت بقوالبها وبالأدوات التي أفادت هاذا الجانب، كقوله – علية الصلاة والسلام– : (كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) ، وقوله –علية الصلاة والسلام – :

(ألاهل بلغت؟ اللهم اشهد) في نهاية كل مقطع يحمل تبليغا لحكم شرعي أمراً أو نهياً أو حثاً.

ولا يغيب عن البال ما أضافه تكرار (هذا) في نهاية كل مقطع من إيقاع لفظي زاد من جلال التوكيد جلالاً ، وكان له من الواقع ما يحفز النفوس إلى تثبيت وتملي واستيعاب القضية بكل أبعادها النفسية والفكرية .

وهذا على جانب من التنظيم النافذ إلى الروح ، ندركه دائماً في حسن جرسه وتعانق معانيه وتتابع موجاته، يدفع بعضها في نشاط وتشابه[1] ويشير الزمخشري إلى القيمة الفنية والمعنوية في ظاهرة التكرار بأنها : (استدعاء منهم لتحديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وطريقة الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لئلا يفتروا أو يففلوا عن تأملهم وما أخذو به)[2] .

وقد وردت الخطبة في مصادر أشرت لها في المقدمة جاء فيها:(وإنكم ستلقون ربكم) حبث جاء الفعل مصدراً بالسين ، وهذه السين قد

---

١ .د. عز الدين على السيد : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ٢٦٥ .

٢ الزمخشري: الكشاف ج٤ ص٢٧٩

حققت إحساس السامع بقرب هذه اللقاء ، وقد عدل البيان النبوي عن (سوف) وهو أيضاً حرف استقبال ، ولكنه يدل على تحقق الفعل بزمن أبعد ، وربما كان في استخدامه في ظاهر الحال أكثر دلالة على السين، إلا أن السين فيها من دلالة القرب ما يشعر أن الأمر واقع لا محالة ، ليكون ذلك الإحساس باعثاً على التعجيل بالالتزام والتمثل والتطبيق .

وحيث تحقق السين هذا الإحساس دون سوف الدالة على التراخي الزمني ، فإن البلاغة النبوية قد حققت مبدأ المطابقة لمقتضى الحال بدقة متناهية . وفي الختام تجسد الحرص النبوي على أن تبلغ جملة هذه التوجيهات من مكامن نفوس المسلمين إلى صورة التوكيد (فلا تظلمنَ أنفسكم) وكان يسعه– صلى الله علية وسلم– أن يقول: فلا تظلموا أنفسكم، ولكن نون التوكيد هي بمثابة أداة القرع للنفس خشية أن تغفل فتضل ، ثم أعقب ذلك بصيغة إنشائية (ألاهل بلغت) ، وهنا تستوقفنا الصيغة الاستفاهمية لنسأل :هل جاء الاستفهام في هذا الموضوع حقيقة أم مجازاً؟

لقد عدل الرسول – صلى الله علية وسلم– عن الصيغة الإخبارية لكي يأتي التقرير أشد وقعاً في النفس، وأدعى إلى الطمأنينه. والاستفهام المجازي هو ما لا يحتاج إلى جواب، لأنه ليس من قبيل طلب حصول الفهم[1] . وبذلك حققت البلاغة النبوية نمطاً فريداً من التعبير، راعى فيه حالة المتكلم وموقفه مبدئياً ونفسياً، وراعي في ذلك المخاطبين وما هم عليه من موقف إزاء ما يلقى عليهم، فوجدوا أنفسهم أن الرسول – صلى الله علية

١ القزويني : التلخبص في علوم البلاغة الهامش ص ١٥٣

وسلم – يستفهم فيأتي الجواب في إثره (اللهم نعم) ، وهو جانب يعزز الحالة النفسية للرسول المبلغ، حيث استوثق أنه أدى الأمانة كاملة غير منقوصة .

خاتمة:

توصل الهدي النبوي إلى مخاطبة الناس من خلال مؤهلات الاستجابة لديهم، مراعياً الفروق الفردية بينهم، وقد جاء النص حافلاً بأدوات المعاني موزعةً في ثنايا النص، وموظفةً في مواقعها المناسبة بحسب أغراضها التعبيرية، للوصول بالنص إلى الهدف الأساس من الخطبة وهو حصول حالة الاقناع لدى المتلقي ، مما يؤدي إلى عملية الالتزام المنشودة من المؤمنين ، وهذا لا يتأتى إلا إذا أتقن المخاطب توظيف الوسائل اللغوية المناسبة لنقل الفكرة . ولذلك انتهج– ﷺ– في خطبته:

١. توظيف السياق الخبري عندما لا تستدعي الحاجة إلى توظيف الأساليب الإنشائية، على نية خلو الذهن مسبقا فيحدث الإقناع دون الحاجة لتوكيد
٢. غلبة السلوب الانشائي من (أمر، ونهي ، ونداء، واستفهام،....) على الإسلوب الخبري لغاية استثارة الهمم وقرع النفوس .
٣. الاستغناء عن أداة النداء (يا) تحقيقاً للقرب والتلاحم بين الرسول – ﷺ– وأبناء الأمة .
٤. الإكثار من توظيف أدوات التوكيد وأساليبه في ثنايا الخطبة كلما أراد – علية الصلاة والسلام– تعزيز مبدأ الأخذ بالأحكام الشرعية والالتزم بها أو الكف عن آخر من النواهي والمحرمات.

٥. التنويع في استخدام أدوات المعاني من حروف جر ونصب وجزم وعطف ونفي واستفهام ونداء،....بما يؤدي إلى رسم الصورة في ذهن المتلقي كما أرادها الرسول- علية الصلاة والسلام- .

٦. ميل الرسول – صلى الله علية وسلم- إلى التكرار عند إرادة الإشعار بأهمية الأمر وتعظيم شأنه .

٧. حرص الرسول – ﷺ- على إبراء ذمته أمام الله ، وأمام الحضور من أنه قد بلّغ الدين الحنيف كما أمر الله. فألجأه ذلك إلى التعقيب في نهاية كل مقطع بالاستفهام التقريري المسبوق بأداة التنبيه(ألاهل بلغت) .

٨. وبالإجمال فالخطبة قد مثلت منهجاً متكاملاً للبلاغة العربية، وهي أنموذج يحتذى لمن انتهج البلاغة قاصداً ذروتها.

فهرس المصادر والمراجع

ابن الزملكاني ، كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الكريم (ت ٦٥١هـ) : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، تحقيق: خديجة الحديثي، وأحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٤ م .

١. ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت٤٥٨هـ): المخصص، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت .
٢. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ): العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ١٩٨٧م.
٣. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) : مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
٤. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ) : لسان العرب
٥. ابن هشام : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري(ت ٧٦١هـ) : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٦. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت٢١٨هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق: مصطفى السقاوزميلية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦م.
٧. أحمد فليح: حروف الجر ومعانيها، المركز القومي، عمان ٢٠٠١م.
٨. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت٢٥٦هـ) : الجامع الصحيح، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ .
٩. البيتوشي: عبد الله الكردي: كفاية المُعاني في حروف المعاني، تحقيق شفيع برهاني، دار إقرأ للطباعة والنشر ، سوريا، دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.
١٠. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ): البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٦١م.
١١. الخطيب القزويني، أبو عبد الله بن زكريا بن محمد(ت٦٨٢هـ) : الإيضاح في علوم البلاغة، لجنة من الأزهر، إشراف محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.
١٢. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النهاوندي(ت ٣٣٧هـ): الجمل في النحو، تحقيق:الدكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل .
١٣. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر(ت٥٣٨هـ) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،صححة : مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي،بيروت، ١٩٨٦م.

١٤. سيبوية ، أبو شر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت ١٨٠هـ) : الكتاب ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب، بيروت

١٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت، لبنان عز الدين علي السيد: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، دار الطباعةالمحمدية، الأزهر، القاهرة، ١٩٧٣م.

١٦. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد(ت١٧٠هـ): الحروف والأدوات، تحقيق : هادي حسن حمودي، ط١، ٢٠٠٧م.

١٧. الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) : الجمل في النحو ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

١٨. القزويني، جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن(ت٧٣٩هـ) : التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٣٢م.

١٩. الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني(ت١٠٩٤هـ): الكليات ، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ،١٩٨٢م.

٢٠. المالقي ، أحمد بن عبد النور(ت٧٠٢هـ) : رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم ، دمشق ،ط٢ ،١٩٨٥م.

٢١. المرادي، بدر الدين أبو محمد الحسن بن قاسم (ت ٧٤٩هـ) : الجنى الداني في حروف المعاني ، تحقيق: طه محسن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ٦ ١٩٧

٢٢. مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت٢٦١هـ) : صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط١ ١٣٧٤، هـ .